# الحسناء

الجزء السابع — المجلد الاول

بيروت في ٢٠ كانون الاول سنة ١٩٠٩

## عباسيا

### ١

### مهد العلم الحديث

القي الرواية من يدك سيدتي فاقص عليك قصة حقيقية محورها المرأة والعلم وقطرها التعصب والظلم . تعالي معي فاحدثك ماشياً فتفهمين كلامي ماشيه . نحن الان في حي الاعيان من المدنية وهنا قصر الملك امامنا وبالقرب منه المتحف الشهير الذي بناه احد الملوك الفاتحين . وفي هذا المتحف دار العلوم التي يؤمها الطلبة من كل حدب وصوب . من الشرق يأتون ومن الغرب ومن الجنوب ومن الشمال ليتلقوا العلم والفلسفة من امرأة عالمة حكيمة . اقف بك امام هذه الكلية العظيمة . كلية لا شرقية هي ولا غربية . اقف بك امام هذا المعهد القديم وهو مهد العلوم الحديثة الذي شيده الامراء وخلد ذكره المؤرخون والشعراء . ما ابهى هذه الرواقات وقد غصت بالطلبة من كل الاجناس والطبقات . وما اعظم هذه المكتبة وفيها ما يربو على الاربعمائة الف مجلداً . ولكنها واسفاه ستوزع على الحمامات بعد حين . ولا يعصى العلم على ابن العاص ؟ ولا الاربعمائة الف

مجلداً تستطيع ان تقف في وجه كتاب واحد . لله في خلقه وفي كتبه شؤون ؟ نعم سيدتي نحن في سراديب التاريخ فلا يهولنك ما وراءنا وما أمامنا من الظلمات على انني اقف بك موقف النور لنذرف دمعتين على العلم واحدى نسائه العاملات

ليست المكتبة اعظم ما في المتحف العظيم بل هناك دوائر اخرى ستريها فهذا المرصد الفلكي الذي يبعد الانسان عن الخرافات ويقربه من الله . وهذا المعمل الكيماوي حيث الملك نفسه كان يشتغل بضع ساعات في النهار باحثاً عن اكسير الحياة . وهذه دار التشريح ولا اظنك تحبين ان تدخليها وقد تتعوذين اذا اخبرتك ان هؤلاء الاطباء يشرحون الاحياء ايضاً ممن حكم عليهم بالاعدام ابتغاء التوصل الى الحقائق الطبية الراهنة . لا تتكرهين . فقتل المجرمين خير من قتل الابرياء . تعالي فاريك جنينة الحيوانات وبستان النباتات حيث الطلبة يتعلمون من الامثال الحية علمي النبات والحيوان . ولا تظني ان التعليم في هذا المعهد العظيم ينحصر في العلوم الطبيعية فقط بل يتناول ايضاً العلوم العقلية والروحية . فمثل كليات العلم كلها هو معهد الحقايق والاضاليل معاً . وربَّ حقيقة تشعل الاوهامُ نورها . وربَّ اوهام كبعض الاطيار تبيض بيضها في عش الحقايق . فقد نبغ في هذا المعهد العلمي المتشرعون واللاهوتيون والاطباء والفلاسفة والعلماء .

لا ياسيدتي ليست كلية أكسفورد هذه ولا معهد السوربون . لسنا الان في باريس او في لندرا . انما نحن في المدينة التي ولد فيها العلم الطبيعي واللاهوت المسيحي تحت سقف واحد فتخاصما وتنازعا طويلاً وكان من شأنهما في قديم الزمان ما كان . انما نحن في قاعدة البلاد المصرية في باريس الزمان القديم في الاسكندرية على عهد الرومانيين . والمتحف الذي وصفت فروعه العلمية هو الذي شيده بطليموس سوتر وابنه فيلادلفس وكان المليكان يدرسان ويعملان فيه كبقية الطلبة والعلماء .

المؤرخون متفقون في ان كلية الاسكندرية هذه كانت في زمانها اعظم معهد للعلم في العالم . كيف لا ومن مرصدها أرصدت النجوم والكواكب التي استنار بها فيما بعد علماء اوروبا الفلكيون . كيف لا وفيها وضعت فلسفة ارسطاطاليس الاستقرائية موضع العمل وكان من ثمارها ان معهد بطلميوس هذا اضحى مهد العلوم الحديثة . ومن من علماء اليوم ينكر فضل اركيميدس في الرياضيات ومن لا يذكر بطلميوس وآبولونيوس وهبارخوس في علم الفلك . ومن لا يعرف اقليدس ومبادئه في الهندسة التي يتعلمها الطلبة في المدارس حتى اليوم . وقد لا تعلمين ان إراتوستينس وهو من علماء هذا المعهد ايضاً قاس الارض قبل علماء المأمون واكتشف شكلها الكروي قبل كوبرنكوس وغاليليو . وان هيرو اخترع آلة البخار قبل جون واتس الانكليزي . وان تيزيبوس اول من اخترع ساعة مائية وان بوليوس القيصر بعث يطلب من هذا المعهد الاسكندري سوسيجينوس الفلكي ليصلح له الروزنامة الرومانية على الحساب الشمسي . فالمعهد الذي ينبغ فيه مثل هؤلاء العلماء العاملين لا شك عظيم والذين يلقون الدروس فيه هم ايضاً عظام

٢

## الفيلسوفة العذراء

ومن هؤلاء سيدتي الفيلسوف ثيون الذي درّس الرياضيات في القرن الرابع (ب م) وراقب كسوفاً سنة ٣٦٥ والف في الفلك والطبيعيات تآليف درست كلها . ولكن اعظم تآليف ثيون واعماله ابنته البارعة هباسيا . ولدت هذه الفتاة في الاسكندرية وقرأت العلوم على ابيها وكان لها ميل خاص في الرياضيات والميكانيكيات . وقبل ان وقفت حياتها على العلم والتعليم سافرت الى آثينا وتلقت هناك الشريعة والفلسفة ورافقت في المحاكم ونشأت نشأة عجيبة دلت على مقدرة عقلية

فيها تضاهي مقدرة اعظم الرجال . ولما توفى ابوها كانت تمكنت من العلوم و برهنت في مواقف عديدة عَلَى تفضلها ورسوخها في الرياضيات والفلسفة فرقيت في العشرين من عمرها وهي عذراء الى منصبه وظلت تعلم في المتحف الاسكندري اربعين سنة فهاج اخيراً عليها هائج الجهل والتعصب فقتلها شر قتلة كما ستعلمين

هباسيا زينة نساء الاسكندرية في تلك الايام ورئيسة الفلسفة الافلاطونية وصديقة الامراء المحبين للعلم والعلماء ومرشدة الحكام وعدوة التعصب والخرافة . كنا نسمع بكليوباترا الملكة الداهية ولكن من منا يسمع بهباسيا العالمة العفيفة العذراء . في هذا المتحف الذي وصفته كانت تلقى دروسها عَلَى الالوف من الطلبة وفيهم الاعيان والاغنياء واللاهوتيون . في هذا المتحف كانت تعلم بافصح لسان واجلى بيان فلسفة افلاطون الجديدة التي تدعى في تاريخ الفلسفة «نيوبلاتونيزم» في هذا المتحف الذي شيده بطلميوس رفيق الاسكندر أنارت هباسيا انواراً اطفأها الجهل والتعصب فظلت بعدئذ اوروبا تعمه في الظلمات احدى عشر قرناً

وقد كانت هذه الوثنية الفاضلة رائعة الجمال فصيحة اللسان شديدة العارضة سريعة الخاطر سديدة الرأي شريفة الشمائل والخصال . وحتى آباء الكنيسة يعترفون لها بذلك . عَلَى انها كانت تتعب فكرها عبثاً في مسائل قد تشغل الفلاسفة بعد الفي سنة كما اشغلتهم منذ الفين مضت . من اين والى اين ؟ فان هباسيا سيدتي كانت تحاول حل هذا اللغز العظيم . ما هو العقل وما هو العلم وما هو الله ؟ في مثل هذه المسائل الخطيرة كانت الفيلسوفة العذراء تلقي دروسها وخطبها . والحقيقة ان فلسفة الاسكندرية في ايام هباسيا وقبلها انما هي مزيج من فلسفات اليونان كلها كفلسفات المشائين والرواقيين والابيكوريين وغيرهم .

ومن تلاميذ هباسيا الذين حازوا شهرة في زمانهم سينيسيوس اسقف برقا

وقد بعث هذا الاب الفاضل برسائل عديدة الى ابنة ثيون البارعة فيها ثناء جميل عليها واعتراف بفضلها وجميلها عليه . وهذه الرسائل لم تزل موجودة وفي احداها يستشير المراسل استاذته في عمل الاسترلاب دليل انها كانت تميل الى علم الفلك والميكانيكيات اكثر من سواهما . وقد الفت كتباً في هذه المواضيع وشرحت كتب آبولونيوس ولكن ابن العاص الذي جاء الاسكندرية بعدئذ لم ير فيها وفي الالوف مثلها كبير فائدة فوزعها كلها على الحمامات للتسخن على نارها المياه برّد الله مثواه

قد شهد المؤرخون لهباسيا الوثنية بالعفة والنزاهة كما شهدوا لها بالفضل والعلم والحكمة . وهم متفقون في انها عاشت وماتت عذراء . واما ما قاله سويداس في انها اقترنت بالفيلسوف إيزيدورس فلا صحة لذلك . وقد قيل انه محض اختلاق وافتراء . والثامون منذ البدء موجودون . فالاسقف سينيسيوس اول من اعترف بفضلها وعلمها . وعندما تعرف بها وأخذ يحضر محاضراتها كانت اضحت في الاربعين من عمرها وكانت قضت في التحف عشرين سنة تخطب وتعلم . وظلت الصداقة بين الفيلسوفة الوثنية والاسقف المسيحي نقية الاسباب وثيقة العرى فلا هباسيا اعتنقت الدين المسيحي ولا سينيسيوس خلع ثوبه الكهنوتي

في سلوكها ولبسها وعيشتها كانت هباسيا آية في الجمال والبساطة . واني لأتخيلها واقفة امام تلاميذها بثيابها البيضاء المهلهلة وقد عقصت بشريطة من الحرير شعرها وسدلت على كتفها ذيل ردائها وفي رجلها نعل يوناني بسيط . فلا قبعة تثقل رأسها ولا مشداً يضعف رئتيها وقلبها ولا كعباً عالياً يضر بعامودها الشوكي وبمجموع اعصابها . آية هي في البساطة والبراعة والجمال . وحبذا لو عادت نساء اليوم الى الزي اليوناني البسيط . خمسة اذرع من الثياب المهلهلة خير من عشرين ذراع من الحرير الثقيل المخيط على اخر « موده » فلا تثقلي وتشددي جسمك

سيدتي كما لو كان جسم عدوك . ناهيك عن مسألة التوفير والاقتصاد . ولكن لسنا الان في موضوع « المودة » والاقتصاد . لنعد الى هباسيا . نقد قربنا مما يثير الاحزان في امرها . لان هذه العالمة الحكيمة التي كان يكرمها الشعب الاسكندري الراقي ويستفتيها العلماء ويستشيرها في امور السياسة الحكام لم تنج من كره المتعصبين المسيحيين . فبعد ان خدمت العلم والفلسفة اربعين سنة ماتت موت الشهداء على افظع طريقة وانكرها . كما ستعلمين

٣

سيريل البطريرك

لم تكن الاسكندرية في ذاك الزمان مهد العلوم المانية فقط بل كانت ايضاً عش الكلام والفلسفة واللاهوت وكان بطريركها سيريل من الذين اشتهروا بالفصاحة والتعصب والمعاندة والمكابرة ارتقى الى كرسي البطريركية وهباسيا في اوج مجدها وقد تجاوزت الخمسين من عمرها ومنذ ذاك الحين الى ان قتلت لم يطب له عيشاً ولم يسغ له شراباً لان امره في التعصب مشهور لدى المؤرخين . فبين هي كانت تلقي دروسها في العلم والفلسفة على الالوف من الطلبة كان هو يهيج من على منبره خواطر النصارى على اليهود . ولا يخفاك ان البطريرك في ذاك الزمان كان كالحاكم المدني وكانت له فرقة من الجنود تنفذ اوامره . على ان محافظ البلد أورستس لم يستطع صبراً وسكوتاً على طرد اليهود ونهب بيوتهم ومعابدهم وتدميرها فناهضه مدة ولكن بدون فائدة . لان المحافظ صاحب سلطة واحدة والبطريرك صاحب سلطتين . وضعيفان يغلبان قوياً . وفي النزاع بين الاثنين كانت هباسيا تميل الى جهة صديقها المحافظ الذي كانت يستشيرها في اموره المهمة . فاصبح النزاع والحال هذه بين ثلاثة اشخاص واخذ يشتد ويتفاقم امره الى ان حدث الحادث

الهائل الذي اودى بحياة ابنة ثيون العالمة الجليلة . ولا نظني ان هذا هو السبب الوحيد الذي اثار خاطر سيريل على هباسيا . فان الخلاف بينهما لا بعد من هذا . اجل انما هو نزاع بين العلم والجهل . بين التعصب والفلسفة . بين الحرية والاستبداد . بل هو خلاف بين العذراء الوثنية التي اسست حياتها على فضائل الدين المسيحي دون ان تعتنقه وبين البطريرك المسيحي الذي استخدم الدين واسطة لشفاء غليله ونيل مآربه وفاز بذلك فوزاً مبيناً . حتى ان الحافظ أورستس اشفق على منصبه وعلى حياته من تعصب البطريرك واستبداده ولكن ذنب الحافظ ذنب سياسي فقط وذنب هباسيا سياسي وعلمي معاً لذلك اختارها سيريل هدفاً لتعصبه واستبداده . وسانقل اليك حادثة قتلها كما رواها واتفق في روايتها المؤرخون

عندما كانت هباسيا عائدة في عربتها من المتحف وهي تقصد بيتها تصدد لها جمهور من الرعاع وفي مقدمتهم بطرس الشماس الذي كان له اليد الطولى في هذه الجريمة الفظيعة المنكرة . فاستنزلوها من العربة وجروها « الى السيزاريوم » ونزعوا عنها كل ثيابها ومزقوا جسدها تمزيقاً بصدف الحار ( وقيل بشقف من القرميد والفخار ) ثم قطعوها إرباً إرباً وذهبوا بها الى خارج المدينة وحرقوها هناك . وذلك في السنة ٤١٥ على عهد الملك ثيودورس الثاني . وقد يتطرف المؤرخون ويعتدلون بحسب نزعاتهم السياسية وصبغاتهم الدينية ولكن ما من واحد منهم يرتاب في ان البطريرك سيريل هو العامل الخفي على قتل هباسيا . وقد قال ثيودورت وهو من اباء الكنيسة المشهورين ان لسيريل يداً خفية في هذه الجريمة . وقال غيره ان لم تقتل هباسيا بامر واضح من سيريل فقتلت بعلمه وارادته

ويقتل هباسيا أفضل باب المتحف الشهير الذي شيده رفيق الاسكندر وكانت نهاية الفلسفة والعلم في الغرب . بل في قتلها تم للتعصب النصر على العلم

والتهذيب . فقفل باب النور الذي فتحه بطلميوس بالاسكندرية كما قفل في اثينا على عهد بوستيانوس . فكان سمبليسيوس اخر الفلاسفة في بلاد اليونان . وكانت هباسيا اخرتهم في بلاد مصر . ومنذ تين الحادثتين المنكرتين تبتدىء ما يدعى في التاريخ ( الاجيال المظلمة ) واستمر احدى عشر قرناً

الفريكه «لبنان» امين ريحاني

# المرأة والاحسان

عودٌ على بدء

كثرت احسانات المرأة كثرة جميلة تؤيد ما كتبناه عنها في الحسناء السادسة مما فطرت عليه من الجود والكرم وتوضح باجلي بيان ما انطوى عليه قلبها الرقيق من العواطف الكريمة والشعور السامي وما تزين به من اللطف والشفقة والحنان . وتنوعت احساناتها بتنوع حاجات الامم فلم تقتصر على المدارس للتعليم والتهذيب فقط بل تناولت اموراً عديدة يحتاج اليها الناس احتياجهم الى تلك

وقد كان للمرأة الاميركية يد طولى في هذه السبل المباركة فاقت بها على غيرها من بنات جنسها الا بعض الفرنسويات كالبارونة هرش التي جمعت مجلة المقتطف مرة قائمة واحدة ما احسنت به الى المشاريع العمومية فبلغت مليونين وثلاثين الف ليرة وقدّرت ان ما انفقته وزوجها في سبيل الاحسان يبلغ ٢٥ مليون ليرة . او البارونة تشايل روتشيلد التي وهبت امتها اكثر ما جمعته من الصور النفيسة منها صورة ثمنها ٢٤ الف ليرة عدا عن هباتها المالية العديدة . او مدام او ديفره التي وقفت مبلغاً وافراً يعطى ريعه جوائز للمشتغلين باكتشاف علاج للسل . او امثالهن من الانكليزيات والالمانيات